221

الأبحاث والدراسات

سيراليون (*)

أ. د. السر سيد أحمد العراقي

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم (الجزء الأول) (أفريقيا)، (الطبعة الثانية) (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). ص ص ١٦٣ – ١٨١ .

الفصل الثامن

سـيراليـــــــون

سيراليون منطقة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٧٢٫٦٦٤ كيلومتراً مربعاً ، ويبلغ طول سواحلها ٣٣٥كيلومتراً ، ويعود ضيقها لإحاطة المستعمرات الفرنسية لها سابقاً . وتتألف أرض سيراليون من سهل ساحلي تكثر فيه المستنقعات والبحيرات الساحلية ، وخط الساحل رملي كثير التعرجات ، ويزيد عرضها على ٣٢ كيلو متراً، وقد استصلح بعضها في الشمال ، وفي الشرق تنمو السافانا إثر موسم الفيضان في الصيف . وفي الجنوب أشجار نخيل الرافيا" ، وإلى الشرق يمتد سهل بعرض ١٦٠ كيلو متراً ، ولا يزيد ارتفاعه على ١٣٠م ، ثم تبدأ الأرض بالارتفاع شرقاً حيث السفوح الغربية لكتلة " فوتاجالون" ذات الصخور القديمة ، وتغطيها الغابات الاستوائية[1] .

وسيراليون تحدها غينيا من الشمال والشرق ، وليبيريا من الجنوب ، والمحيط الأطلسي من الغرب ، وقد عرفت بهذا الإسم " سيراليون " منذ عام ٨٦٧هـ ، إذ أطلقه عليها الرحالة البرتغالي "ديجو جوميز " ، إذ عندما وصل إلى سواحلها كثرت الغيوم وومضات البرق ، وارتفعت أصوات الرعد ، فأطلق عليها هذا الاسم . وتقع سيراليون في السفوح الغربية لمرتفعات فوتاجالون ، وهي بهذا تقع بين خطي عرض ٦٫٥٥ – ١٠ شمالاً ، وهذا يجعلها تقع ضمن الإقليم السوداني ، فهو حار رطب في الصيف ، وترتفع الحرارة أكثر في أيام العام ، وتختلف الأمطار كذلك بين الساحل والداخل ، حيث تزداد في الداخل مع الارتفاع ، وتقل الأمطار كلما اتجهنا شمالاً ، إذ

---

(1) اسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، (قارة افريقيا) الجزءالثاني، ص ٢٤٢، دار المريخ - الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

يصبح المناخ سودانياً ، ويصبح العام فصلين ، فصل حار رطب وهو الصيف ، وآخر جاف هو فصل الشتاء ، وأنهار سيراليون كثيرة غزيرة تنبع كلها من المرتفعات في الشرق، وتتجه نحو الغرب والجنوب لتصب في المحيط لأطلسي ، وهي دائمة الجريان وأشهرها نهر مانو ونهر هورو ونهر موا ونهر سيوا وغيرها .

كانت أرض سيراليون منذ القدم مسرحاً لتنقل القبائل البدائية التي تعيش في غاباتها وسواحلها . وقد خضعت هذه المنطقة منذ القرن السابع الهجري لمملكة مالي الإسلامية ومؤسسوها من الماندنجو الذين قضوا على مملكة غانا ، وسيطر الماندنجو على جزء كبير من بلاد غربي أفريقيا ، ونشروا فيه الإسلام . وقد تبودلت السيادة على منطقة سيراليون بين الممالك الأفريقية الإسلامية التي سادت في خلال العصور الوسطى، وأبرزها دولة غانا التي ورثتها دولة مالي ثم إمبراطورية الصنفى الإسلامية ، ثم دانت المنطقة للسيادة البرتغالية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم كما سبق القول[1] . وكانت الممالك الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها تتركز في الداخل ، لذا لم تكن لسواحلها قوة بحرية تحميها ، الأمر الذي جعل البحارة يلجأون إليها دون وجود قوة تمنعهم وهذا ما جعلها مركزاً للملاحين ، الأمر الذي ساعد على دخول البرتغاليين الذين أبرموا اتفاقية مع المسلمين مكنتهم من الوصول إلى سواحل سيراليون الحالية منذ عام ٨٦٧ هـ . وفيما بعد وصل البريطانيون إلى تلك الجهات ، وقد امتهنوا تجارة الرقيق ، وتمكنوا من أن تكون لهم مواطئ قدم . ثم اشتروا الأراضي لتكون مستعمرة لهم ، وقاموا بتوطين الزنوج الذين سرحوا من الجيش والبحرية بعد حرب الاستقلال الأمريكية . ولما نجحت حركة الجهاد الإسلامي في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر التي قادها الفلانيون بقيادة الشيخ عثمان بن فودى وقيام الخلافة الصكتية التي ضمت كل بلاد نيجيريا والبرنو وأراضي من مالي ، وصل الإسلام إلى سيراليون وازداد انتشاره

---

[1] طرخان، ابراهيم علي، امبراطورية صنفي الإسلامية، ص ١٠٤، الهيئة المصرية العامة للكتابن القاهرة، ١٩٧٥م.

بين قبائل هذه البلاد[1] .

يزيد عدد السكان في سيراليون على الأربعة ملايين ، وإمكانات البلاد الاقتصادية كبيرة من حيث الإنتاج الزراعي والثروة المعدنية ، لكن نسبة الوفيات مرتفعة بسبب انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة ، ويعود ذلك إلى تدهور البيئة وانخفاض المستوى الصحي والتثقيفي ، ويعاني المسلمون خاصة من الإهمال بسبب إزدياد نفوذ المبشرين والنصارى الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم في البلاد رغم أن المسلمين يشكلون أغلبية السكان . ويتألف سكان سيراليون من عدة قبائل يزيد عددها على الثلاثين قبيلة من أهمها :

١) التمنى : وينتشر أفراد هذه القبيلة في الشمال ، ويؤلفون ٢٥٪ من السكان ، وكانوا يشكلون السكان الرئيسيين لشبه الجزيرة التي كانت نواة الاستعمار الإنجليزي في المنطقة، أو المستعمرة الأولى ، عندما تأسست مدينة فريتاون[2] .

٢) الماندي : وينتشر أفراد هذه القبيلة في الأقسام الجنوبية من البلاد ، ويصل عدد أبنائها إلى ثلث السكان ، ويقع الخلاف دائماً بينهم وبين قبيلة التمنى .

٣) الفلاني : ويعيشون في شرق البلاد ، وقد نزحوا إلى هذه البلاد منذ زمن ازدهار – مملكة مال الإسلامية في العصور الوسطى ، وازدادت هجراتهم في زمن الخلافة الصكتية ، ونشروا الإسلام والثقافة الإسلامية في ربوع هذه البلاد ، وهم مسلمون متمسكون بعقيدتهم ، قاموا بنشر الإسلام على المذهب المالكي[3] .

٤) ومن القبائل الأخرى كذلك الكربول والسوسو (الصوصو) .

---

[1] نظام الحكم في الخلافة الصكتية، دار نشر جامعة الخرطوم، ١٩٨٣م.

[2] تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة افريقيا) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

[3] طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٥٣، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

وتزيد نسبة المسلمين على ٧٥٪ من مجموع السكان ، وينتشر الإسلام في القبائل كلها دون استثناء ، وإن كانت النسبة تزيد لدى قبائل الماندي وتقل عند الكربول . أما النصارى فلا تزيد نسبتهم على ١٠٪ وأكثرهم من الكربول . أما الوثنية فتكثر في مناطق الغابات . ويلاقي المسلمون الأمرين من الإرساليات التبشيرية النصرانية ذات الإمكانات الهائلة والتي تدعمها الدول النصرانية .

تزرع البلاد الفول السوداني والنخيل الزيتي والأرز والذرة والكاكاو وجوز الهند والبن والكاسافا والموز والفواكه والكولا والكتان والزنجبيل ، وتستثمر الأخشاب من الغابة[1] .

أما اللغة في سيراليون ، فلكل قبيلة لغتها الخاصة التي يتخاطب بها أبناؤها فيما بينهم ، أما اللغة الرسمية فهي اللغة الإنجليزية ، إلا أن اللغة العربية لها أيضاً مكانتها الخاصة في سيراليون ، وهي تتقدم وتنتشر مع انتشار الإسلام وتوسع الثقافة الإسلامية . وهناك لغة الكربول التي يتفاهم بها الناس جميعاً في سيراليون ، وهي لغة إنجليزية محرفة ومتطورة ، إذ دخلتها كلمات ومفردات من لغات عديدة من هولندية وبرتغالية وفرنسية ودانماركية وعربية ، بالإضافة إلى لغات القبائل في سيراليون، وبعض مفردات من لغات بعض القبائل الأفريقية المجاورة إذ أن الأرقاء المحررين عندما أقاموا في هذه المنطقة كانوا يتكلمون اللغة الإنجليزية ، ثم اختلطوا كذلك بالمحررين الآخرين القادمين من دول أجنبية أخرى ، وكانت لهم لغاتهم الذين يتحدثون بها ، كما اختلطوا برجال القبائل الأخرى ، فتكونت لغة جديدة هي مزيج من عدة لغات ، أطلق عليها لغة الكربول المحلية [1] وهذا الوضع شبيه باللغة السواحيلية في شرقي أفريقيا .

تاريخ انتشار الإسلام في سيراليون :

أما عن الإسلام وانتشاره في السودان الغربي (غرب أفريقيا) ، فالمعروف أنه

---

[1] تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص ٢٤٤.

بدأ ينتشر من حوالي منتصف القرن السابع الميلادي ، أي بعد فتح مصر وشمالي أفريقيا، ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في القرن الحادي عشر، هم الذين أدخلوا الإسلام تلك البلاد لأول مرة ، بل إن حركتهم أدت إلى ازدياد عدد الداخلين في الإسلام .

فالصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة ، بين بلاد السودان وبلاد البحر المتوسط ، وقد كثرت هجرات المسلمين بعد ظهور الإسلام ، من العرب والبربر إلى بلاد السودان، وذلك منذ الفتح العربي الإسلامي لمصر وشمالي أفريقيا ، واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم في تلك البلاد . وهناك جهود إمبراطورية أودغست الإسلامية ، وتفاني ملوكها في نشر الإسلام بين الزنوج . بلغت هذه الإمبراطورية ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وقامت بدور كبير في الدعوة إلى الإسلام قبل حركة المرابطين[1] .

والمعروف أن أودغست مدينة أسسها السوننك ، ولو أن حكامها من البربر من قبيلة لمتونة ؛ جهدت هذه الإمبراطورية في نشر الإسلام ، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمالي أفريقيا ، عبر الطرق الصحراوية ، والسلعة الهامة المطلوبة لبلاد السودان هي الملح[2] .

ويذكر عن ملك أودغست أنه كان شديد التحمس لنشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب .

كل تلك جهود وصلات مباشرة بين المسلمين وبلاد السودان ، لها أثرها لا شك في دخول أعداد كبيرة في الإسلام قبل القرن الحادي عشر . وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، جاء إسلام ملك التكرور وأرجابي أبن رابيس (ت حوالي

---

[1] و[2] طرخان، غانا في العصور الوسطى، ص ٥١، مستخرج من المجلة التاريخية ـ المجلد الثالث عشر، ١٩٧٦م، القاهرة.

٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) عنصراً هاماً في ازدياد انتشار الإسلام وهو صاحب الفضل في إسلام أهل سلي من أعمال التكرور[١] .

ويقول البكري : " أن المسافة بين سلي وبين غانة " عشرون يوماً في عمارة بلاد السودان "[٢] وليس من شك في أن هذه الصلات المتنوعة ، وهذه الجهود البارزة ، قد أدت إلى انتشار الإسلام في غربي إفريقيا ، ولما كانت غانة جزء من غربي أفريقيا ، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين بنيها ، بدرجات متفاوتة . لكن لا نستطيع أن نقول إن البلاد كلها .. حكومة وشعباً ، أو حكاما ومحكومين ، قد اعتنقت الإسلام ، أو الإسلام صار الدين الرسمي لإمبراطورية غانا . والراجح أن أعداداً كبيرة من سكان غانه قد اعتنق الإسلام ، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد غانه في زمن مبكر ، قبل المرابطين . والثابت أن أراضي إمبراطورية غانا القديمة قد ضمت أراضي سيراليون الحالية ، بل وصلت إلى المشارف الشمالية لحدود جمهورية غانه الحديثة .

وهناك أكثر من دليل على قدم الإسلام في تلك البلاد ، فقد ذكر البكري (ت١٠٩٤م) أن بني أمية أرسلوا جيشاً إسلامياً لفتح بلاد السودان ، في صدر الإسلام ، واستقرت ذرية هذا الجيش في غانة[٣] ... ويقول القلقشندي عن إسلام أهل غانه : " وكان أهلها أسلموا في أول الفتح "[٤] . ثم أن نمو الحي الإسلامي بعاصمة غانا ، أو المدينة الإسلامية ، ليس من المعقول أن تكون قد ظهرت مرة واحدة أو خلال وقت قصير ، بحيث أصبحت تضم اثني عشر مسجداً ، وأنها صارت موطناً لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم .

---

[١] طرخان، المرجع السابق، ص ٥٢ز

[٢] البكري، ابو عبدالله بن عبدالعزيز البكري، (ت ١٠٩٤م) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشرة راندو Random الجزائر، ١٨٥٧م) ص ١٧٢ - ١٨٣.

[٣] البكري، ص ١٧٨ - ١٧٩.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٨٤.

يقول البكري : " ومدينة غانا مدينتان سهليتان إحداهما المدينة الإسلامية التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجداً ، إحداهما يجمعون فيه – أي يؤدون صلاة الجمعة – ولها الأئمة والمؤذنون ، وفيها فقهاء وحملة علم ، وحواليها آبار عذبة ، منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات "[1] .

ومن الظواهر البارزة في تاريخ إمبراطورية غانا ، أن المسلمين لكثرتهم وهويتهم وثقافتهم ونشاطهم سواء أكانوا من السوننك الوطنيين أو من المستوطنين العرب والبربر ، تمتعوا باحترام واضح من قبل الملوك الوثنيين ، ومجر نمو القسم الإسلامي في العاصمة ووجود إثنى عشر مسجداً به ، دليل كبير على الاحترام وهذا التسامح ، وأكثر من هذا ، أقام الملك الوثني مسجداً في الحي الوثني من العاصمة وهو " الغابه " لكي يؤدي فيه المسلمون الوافدون عليه ، شعائر دينهم ، يقول البكري : " وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس الملك . " . . . ويصف البكري الملك الغاني تنكامنين بقوله إنه كان " محمود السيرة، محباً للعدل مؤثراً للمسلمين "[2] .

هذا وإسلام رعايا غانه قبل حكومتها ، لم يحل دون تولي المسلمين أسمى المناصب في الحكومة ، وحسبنا ما ذكره البكري عن كبار رجال حكومة الملك الوثنيين .

وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه "[3] لكن هذا لا يعني أن جميع ملوك غانه ، كانوا على الوثنية ، بل هناك رواية تقول أن الملك تلوتان أو بولاتان وهو ابن تكلان اعتنق الإسلام حوالي عام ٨٣٧م ، وأنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين[4] . وإذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن ملوك

---

[1] البكري، ص ١٧٤ - ١٧٥.

[2] المغرب، ص ١٧٥.

[3] غانا في العصور الوسطى، ص ٥٣.

[4] المصدر السابق، ص ٥٤.

غانه صاروا مسلمين على التعاقب منذ القرن التاسع الميلادي فصاعداً ، بل المحتمل أن قلة منهم أسلمت وأن غالبيتهم ظلت على الوثنية إلى أن جاءت حركة المرابطين[1] .

جاء المرابطون في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، وقد بدأوا حركتهم في المشارف الشمالية لبلاد السودان ، بإخضاع أودغست عام ١٠٥٥م ، عقاباً لها على خضوعها لحاكم سوننكي ، واتجهوا بعد ذلك إلى مدينة غانا ، واستولوا عليها عام ١٠٧٦ ، وعينوا عليها حاكماً من البربر . ومنذ ذلك ، أي من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية غانا الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد أضحت حكومتها إسلامية ، ويقال أن الملك تنامنين السوننكي كان يحكم غانه عند فتح المرابطين لها ، وأنه قبل الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين ودفع الجزية ، وأنه بإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان غانا وغيرها من المدن في الإسلام .

والمحقق أن الكثير من سكان إمبراطورية غانا ، قد اعتنق الإسلام قبل القرن الحادي عشر، وأنه منذ فتح المرابطين لعاصمة غانه ، ازداد عدد الداخلين في الإسلام كما أسلم ملوكها أو أضحى ملوكها مسلمين ، وأصبحت الحكومة إسلامية منذ ذلك الوقت[1] .

واشتهر أهل غانه ، وأغلبهم من السوننك ، بحماستهم للإسلام ، وبالدور الكبير الذي نهضوا به في الدعوة إلى الإسلام ، إن كانت هذه العقيدة ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية ، حتى أن بعض الشعائر السوننكية ، تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط ، بل أن كلمة " سوننك في أعالي نهر غامبيا ، استخدما الماندنكا الوثنيون مرادفاً لكلمة " داعي " مما يدل على الدور الكبير الذي لعبه السوننك في نشر الإسلام[2] واتصلت حكومة غانا بالإسلام اتصالاً مباشراً بالخلافة العباسية في بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة ، كما أن ملوك غانا الإسلامية

---

[1] غانا في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص ٥٤.

[2] المرجع نفسه، ص ٥٥.

ادعوا أنهم ينتسبون إلى البيت العلوي .

لقد جاءت الصدمة الكبيرة على الوجود التاريخي لإمبراطورية غانا على يد قبائل السوسو (الصوصو Soso أو Susu) وهي القبائل التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن أشهر قبائل سيراليون ، والسوسو (الصوصو) فرع من الفولانيين ، هاجروا من بلاد تكرور وكونوا لهم طبقة حاكمة في إقليم كانياجا التابع لإمبراطورية غانا ، وظل حكام الصوصو يدفعون الجزية لحكومة غانا فترة طويلة ، حتى إذا كان فتح المرابطين لغانة عام ١٠٧٦م خرج الصوصو وأعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن غانه . وأخذوا يتوسعون فيما حولهم حتى أنهم انتزعوا إقليم ديارا من غانا الإسلامية أواخر القرن الثاني عشر[١] . وفي مطلع القرن الثالث عشر ، استولى أعظم أباطرة السوسو وهو سومنجارو على العاصمة كومبي صالح عام ١٢٠٣م ، وبذلك أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين ، فتفرقوا في البلاد ، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين من سكان العاصمة الغانية اتجه إلى مدينة ولاتا ، حيث أقاموا مركزا تجارياً لهم، وسرعان ما إزدهرت هذه المدينة حتى صارت من أعظم المراكز التجارية في السودان الغربي[٢] .

على أن نهاية إمبراطورية الصوصو وسومنجارو نفسه جاءت على يد ماري جاطه إمبراطور مالي الإسلامية ومؤسسوها من قبائل الماندنجو ، وأسرة كيتا هي صاحبة الدور الكبير في القضاء على إمبراطورية الصوصو الوثنية ، والتي استطاع ملكها ماري جاطة ضم جميع أملاك الصوصو ، كما ضموا جميع أراضي إمبراطورية غانا ، واستولوا على معظم بلاد غربي إفريقيا ، ونشروا فيها الإسلام .[٣]

لقد كان الماندنجو ، من أكثر شعوب غربي أفريقيا تمسكاً بالإسلام وتحمساً له ، وازداد انتشاره بينهم ، وأصبح دين الدولة ، وكان المذهب السني المالكي هو الذي

---

[١] غانا في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص ٧٦.

[٢] طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٥٣.

[٣] خرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٥٣.

ساد في دولة مالي ، وفي أغلب دول غربي أفريقيا الإسلامية . ومن مظاهر تمسك دولة مالي بالإسلام شدة الحرص على تعليم القرآن للصبية ، وقد شهد ابن بطوطة خلال رحلته في مالي (١٣٥٢م - ١٣٥٣م) كثيراً من هذه المظاهر . وعرف عن ملوك مالي نشاطهم وحرصهم على الإسلام ومؤسساته . وتمتع العلماء المسلمون بمكانة سامية في دولة مالي ، حتى في عهدها الوثني ، واقترنت جميع فتوح مالي الحربية بالدعوة الإسلامية بين الوثنيين[١] .

هكذا كان انتشار الإسلام في تلك البلاد وحرص ملوكها وعلمائها على التمسك بمظاهره فضلاً على الدعوة له . أما عن طبيعة انتشار الإسلام في مالي وغيرها من دول السودان الأوسط ، والغربي ، وتفسير سرعة انتشاره وقبوله ، فإنه من الملاحظ ، لأول وهلة ، أن الإسلام في أفريقيا جنوبي الصحراء ، ظفر بأقوى القبائل وأعظمها شأناً ، وأنه هو الذي أدى إلى قيام الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى في جميع بلاد غربي أفريقيا من المحيط الأطلسي إلى مملكة سنار الإسلامية في جمهورية السودان الحالية أو في حوض النيل . لقد جاء الإسلام إلى الزنوج وهم سادة في أوطانهم يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة ، ويمارسون حكوماتهم وينظمون شئونهم الخاصة و مجتمعاتهم ، لم يكن لدعاة الإسلام من العرب والبربر أو ناشريه أدنى قسط من السيطرة ، وإن كان نفوذهم الروحي عظيماً ، لكنه مقبول عن رضى واقتناع . ولا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة أفريقيا الواسعة ، ومهما كان مستقبل المسيحية في أفريقيا ، فليس هناك أدنى شك في أن هذا المستقبل سوف يتأثر نتيجة حماسة الزنوج المسلمين . وقد اقترن انتشار الإسلام والعلوم الإسلامية في هذه البلاد بانتشار اللغة العربية وعلومها ، إذ سارت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع اللغة العربية والعلوم العربية على اختلافها[٢] .

---

[١] المرجع نفسه، ص ٥٥.

[٢] طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٦٠.

لقد كانت المرحلة التي تلت دور مالي في نشر الإسلام في تلك البقاع ، ما قامت به إمبراطورية الصنفى الإسلامية ، وهي التي ورثت مالي في تلك الجهة ، منذ أسلم أول ملوكها زاكاس حوالي ١٠٠٩م ، على نشر الإسلام بين الوثنيين ، كما كان الشأن بالنسبة لمالي ٠- وفي زمن سنى على (ت ١٤٩٢م) ازداد انتشار الإسلام حتى وصل إلى فروع النيجر الشرقية ، كما أن أسرة الاساكي التي تبدأ بالأسكيا الأكبر (ت ١٥٢٩م) قامت بأعظم دور في نشر الإسلام ، وبلغت إمبراطورية صنفى زمن الأسكيا محمد أو اسكيا الأكبر أقصى اتساعها وعظمتها ، حتى ظفر بلقب الإمام ولقب أمير المؤمنين[1] ٠

كذلك يضاف إلى هذه الأدوار ما قامت به قبائل الفلاني التي اشتد حماسها لنشر الإسلام زمن ازدهار دولتهم (الخلافة الصكتية) في القرن التاسع عشر ، على أن إسلام الفلانيين يرجع إلى حوالي القرن الرابع عشر ٠

لقد شق الإسلام طريقه إلى سيراليون أيضاً ليس عن طريق الفتح الحربي أو الضغط أو القهر ، ولكن عن طريق التجارة والمصاهرة والإندماج والكتب والمدارس والمساجد ، لأنه يصعب إخضاع وقيادة القبائل الكبيرة عن طريق الحرب ٠ وكان العلماء والفقهاء والتجار الذين يتصلون بسكان هذه البلاد من أقوى العوامل التي ساعدت على اعتناق أهل هذه البلاد للإسلام، وذلك لما كانوا يتمتعون به من سماحة وتقوى وأخلاق حسنة ، حتى غدت كلمة مسلم تدل على أن صاحبها منزه من فعل السوء ٠

أما المساجد وكثرتها منذ دخول الإسلام هذه البلاد ، فتدل على أهميتها البارزة ودورها الكبير في ازدهار الحياة الاجتماعية والثقافية الإسلامية في سيراليون ، فالمسجد هو المكان الأول الذي يهتم بقضايا المسلمين ، لذا شيدت كل جماعة مسجدها الخاص ، وعينت له إماماً ليكون كلامه الفصل في المشكلات التي يتعرض لها

---

[1] نظام الحكم في الخلافة الصكتية، ص ٢٠.

المجتمع . ففي المسجد يعقد النكاح ، ويكون الطلاق، ويفصل في الخصومات ، وتوزع الزكاة ، ... الخ .

وأشهر هذه المساجد[1] :

١) الجامع العتيق : وهو خاص بجماعة اليوروبا التي قدمت من نيجيريا .
٢) جامع التوحيد .
٣) جامع كوتورد .
٤) جامع الولا .
٥) جامع الوسو .
٦) جامع أوب كون .
٧) الجامع الجليل .
٨) جامع الفردوس .
٩) جامع الأمين .
١٠) جامع الهوسا .

وقد ساهمت جميع هذه المساجد مساهمة فعالة في انتشار الإسلام بين القبائل كلها . وقد نشأت كذلك جمعية الأخوة الإسلامية عام ١٣٨١هـ واستطاعت فتح سبعين مدرسة ابتدائية وثانوية ، ومعهد لتخريج المعلمين ، وتدرس هذه المدارس منهج وزارة المعارف في سيراليون ، وتوجد هناك جمعيات أخرى كالجمعية الإيمانية في العاصمة فريتاون ، وذلك منذ عام ١٣٥٧هـ[2] .

الكشف الجغرافي والاستعمار :

الإتصال بين أفريقيا ، جنوبي الصحراء وغربيها بصفة خاصة ، وبين العالم

---

[1] محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية، سيراليون، ص ٤١ - ٤٢.

[2] طرخان، البرتغاليون في غرب افريقيا، ص ١٢، مستخرج من حوليات كلية الآداب، المجلد الخامس والعشروون، الجزء الأول - مايو ١٩٦٣، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٧.

الخارجي ، ظاهرة قديمة ومستمرة منذ الأزمنة السحيقة ، وقد دلت الآثار المكتشفة حديثاً على أن غربي أفريقيا ، كان مركز نشاط ومدنية ، منذ أقدم العصور ، بل هناك اعتقاد ، بأن أقدم الصناعات الأوروبية التي ترد إلى العصر الحجري القديم ، وفدت من تلك البقعة ، عن طريق البر ، منذ كانت الصحراء خصبة مسكونة من نحو ٤٠ ألف سنة ، ودلت كذلك على أن صناعة الحديد قديمة في تلك البلاد[1] .

نشطت حركة المواصلات والتبادل التجاري بواسطة طرق القوافل التي تملأ الصحراء الكبرى ، على مر القرون ، وساهم الفينيقيون بقسط كبير في نقل منتجات وسط أفريقيا وغيرها، إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا بعد أن تصل إلى موانئ شمال أفريقيا ، وازدادت النقلة من وإلى بلاد السودان الغربي والأوسط ، على أثر دخول الجمل إفريقيا ، إذ قلت أخطار الرحلات ، كما قلت المخاوف التي تكتنف السفر داخل الصحراء ، وبزيادة الاتصالات وسهولتها ، كثرت هجرات عربية من الشرق وشمالي إفريقيا إلى بلاد السودان جنوبي الصحراء ، ولاسيما بعد ظهور الإسلام . ومع هذه الاتصالات والآثار التي لم تنقطع في أي فترة من فترات التاريخ ، قامت محاولات قديمة ، قدم هذه الاتصالات للكشف الجغرافي والتعرف على أحوال تلك البلاد وغيرها . أي أن محاولة التعرف والاتصال بغرب أفريقيا ، أمر قديم ومستمر ، وكلما ازداد الاتصال ازدادت المعرفة بثروات تلك البلاد ، كلما اشتدت الرغبة في الاتصال المباشر . ومنذ القرن الثاني عشر تقريباً، كانت أوروبا جادة في التعرف على قلب أفريقيا ، والحصول على المزيد من منتجاتها . ثم إن شهرة إمبراطورية مالي الإسلامية وعظمتها في القرن الرابع عشر الميلادي ، ومن قبلها شهرة إمبراطورية غانا بذهبها وثرائها ، قد بهرت أوروبا . بل إن عظمة مالي وحدها زمن السلطان كنكن موسى ٧١٢ - ٧٣٨هـ /١٣١٢-١٣٣٧م ، كانت من العوامل الهامة التي حفزت أوروبا على ضرورة الإسراع في محاولة الوصول إلى قلب أفريقيا عن طريق غير الطريق الذي

---

[1] طرخان، البرتغاليون في غرب افريقيا، ص ١٢، مستخرج من حوليات كلية الآداب، المجلد الخامس والعشرون، الجزء الأول - مايو ١٩٦٣، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٧٦.

يتحكم فيه المسلمون . ولا شك أن التجار الأوربيين المقيمين قرب ساحل إفريقيا الشمالي قد شهدوا موكب حج السلطان موسى ، وهو في طريقه إلى الأرض المقدسة ، ورأوا فخامته وعظمته وما يحمل من ذهب ويصحب من أتباع . والدليل على أهمية أخبار مالي وعظمتها وحادث موكب حج السلطان موسى ، في محاولة الأوربيين للوصول إلى بلاد الذهب ، أن صورة هذا السلطان وموضع إمبراطوريته والطرق المؤدية إليها ، قد ظهرت في معظم خرائط العالم **Mappa Munti** التي صدرت عن علماء مدرسة ميورقه ، وغيرهم من علماء أوروبا في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، بل وفي بعض خرائط القرن السادس عشر[1] .

جاءت الخطوة العملية الهامة في سبيل التعرف على قلب إفريقية والوصول إليه ، فيما ساهمت به مدرسة ميورقة ، وما قدمه علماؤها من خرائط جغرافية ،غير أنها أفادت في تقدم علم رسم الخرائط **Cartography** في أوروبا ولاسيما في إيطاليا ، ومن ثم ظهرت خرائط أخرى أكثر دقة بددت الظلام المحيط ببلاد السودان فيما وراء الصحراء .

أفادت كل هذه المعلومات التي تجمعت ، في إلمام أهل أوروبا عامة وأوروبا الجنوبية بصفة خاصة ببعض أخبار ومعالم أفريقيا وثرواتها ولاسيما الذهب . وكانت الحاجة إلى مزيد من التجارة الخارجية في أوروبا قد صارت ملحة منذ مطلع القرن الخامس عشر ، لحل مشاكل القارة الاقتصادية ، إذ استنفدت الحروب الطويلة ما لديها من الاحتياطي من المعادن الثمينة ، ولذلك احتاجت إلى الذهب لدفع أثمان السلع المستوردة من الهند والصين وجزر البهار .

تركز اتجاه أوروبا في قلب أفريقيا ، لما سمعه الأوربيون ورأوه ، ومما رواه الرحالة المسلمون والمغامرون ، ومما أظهرته الخرائط الجغرافية من الإشارة إلى الذهب ووفرته في قلب القارة .

---

[1] البرتغاليون في غرب افريقيا، ص ١٦.

وتقرر بعد ذلك أن يكون طريق البحر هو الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه بسبب تحكم المسلمين في طريق القوافل ، ورغم أن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) لم يكشف بعد، فقد كان هناك احتمال كبير في نجاح الطريق البحري للوصول إلى قلب أفريقيا .

جاءت المحاولات الناجحة المنظمة ذات الآثار بعيدة المدى ، بفضل شخصية تاريخية معروفة ، تلك هي شخصية هنري الملقب بالملاح Henry The Navigator (ت ١٤٦١م) ، وهو أصغر أبناء حنا الأول Don Joao I ملك البرتغال (١٣٨٥ - ١٤٣٣م)[1] .

تمتع الأمير هنري بسعة المعرفة والإطلاع على معارف عصره الجغرافية، كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريق دراسة الكتب التي غنمها من المكتبات العربية في البرتغال وقشتاله ، وجمع حوله طائفة من البحارة المهرة المدربين ، كذلك عاونه أخوه دون بطرس DoN Pedro الذي اشتهر بكثرة رحلاته . وقد حصل بطرس وهو في البندقية عام ١٤٢٨م على نسخة من رحلات ماركو بولو البندقي ، وقدمها إلى أخيه هنري .

أنشأ هنري الملاح معهداً بحرياً في مدينة ساجر Sagres بالبرتغال عام ١٤١٩م، كما أنشأ بها دار صناعة ، ووضع مشروعاً عاماً لحركة الكشف الجغرافي ، أوقف حياته وجهوده على تحقيقه ، ويرمي من وراء هذا المشروع الوصول إلى هدفين أساسيين :-

أولهما : تعقب المسلمين في شمال أفريقيا ، ونقل الحروب الصليبية إلى بلادهم.

ثانيهما: الوصول إلى ذهب السودان عن طريق البحر ، وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلى الطريق البحري وإلى موانئ المحيط الأطلسي بدلاً من موانئ البحر

---

[1] المرجع نفسه، ص ١٨ - ٢٠.

المتوسط .

وحركة الكشف البرتغالي في غربي أفريقيا وغيرها ، هي التي خلدت اسم هنري في التاريخ ، وفتحت أفريقيا للاستعمار الأوروبي الحديث .

بدأت الكشوف ببطء في أول الأمر ، ويؤرخ لأول رحلة زمن هنري بعام ١٤١٨م ، ثم كانت رحلة عام ١٤٣٤م بقيادة جيل إينز التي وصلت إلى جنوبي رأس بوجادرو . ثم بعد ذلك كشف الرأس الأخضر (١٤٤١ -١٤٤٢) واستمرت رحلات الكشف البرتغالية ، ووصلت عام ١٤٤٣م إلى جزيرة أرجوين المقابلة للرأس الأبيض . ثم وصلوا إلى نهر غمبيا ، ثم وصلوا إلى سيراليون عام ١٤٦٠م .

جاءت وفاة هنري الملاح عام ١٤٦١م ، لكن مشروعات الكشف لم تقف من بعده ، فبعد وفاته بنحو سنة ، أي عام ١٤٦٢م ، وصل القائد البرتغالي بطرس سنترا Pedro de Cintra إلى رأس بالماس Palmas في ليبريا الحالية . وفي عام ١٤٧٠م أطلق القائد البرتغالي ديجو جوميز Diego Gomes على سيراليون هذه التسمية وأطلقها على شبه الجزيرة التي تقع عليها مدينة فريتاون الحالية ، اشتقاقاً من منظر جبالها المرعب ، نتيجة لأن جبالها تبدو للقادم من جهة البحر كأنها صورة أسد Lion Mountain ، وذلك نتيجة لكثرة عمليات التعرية ، والأرجح أن هذه التسمية جاءت نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التي تهب على هذه المنطقة ، تحدث أصواتاً تشبه زئير الأسد[1] . ولم تمض مدة حتى أصبح للبرتغاليين مراكز على تلك السواحل .

وجاء الإنجليز أيضاً إلى تلك الجهات ، وقد امتهنوا تجارة الرقيق ، وتمكنوا من أن تكون لهم موطئ قدم ، ثم اشتروا في بداية القرن الثالث عشر قطعة أرض من أحد زعماء البلاد لتكون مستعمرة لهم يسكنون فيها الزنوج المسرحين من الجيش

---

[1] طرخان، البرتغاليون في غرب افريقيا، ص ٢٦ - ٢٧.

والبحرية، وذلك بعد انتهاء حرب الاستقلال الأميريكية ، وينقلون عليها أيضا الزنوج الذين التجأوا إلى لندن ، وأقاموا في ضاحية من ضواحيها . وفي سنة ١٢٠٦هـ أنشئت مستعمرة جديدة من قبل شركة سيراليون ، ولكن الفرنسيين قد نهبوا هذه المستعمرة التي عرفت باسم " فريتاون " . وفي عام ١٢٢٢هـ نقلت الشركة حقوقها إلى التاج البريطاني ، وفي العام التالي ألغيت تجارة الرقيق ، فنقل إلى المستعمرة الزنوج الذين قبضت عليهم أيد إنجليزية من جهات متعددة ، وكانوا على بواخر إنجليزية في طريقهم إلى البيع ، الأمر الذي جعل سكان المستعمرة يزداد .

كان الصراع دائماً يحدث بين رجال القبائل أصحاب البلاد وبين هؤلاء الغرباء وأسيادهم من المستعمرين ، واشترت إنجلترا أراضي جديدة مجاورة للمستعمرة من زعماء القبائل تارة بالإغراء وأخرى بالتهديد ، وضمت هذه الأراضي إلى المستعمرة . وفي عام ١٢٩٠هـ بدأ الإنجليز بالتوسع نحو الشمال الشرقي ، وضموا إليهم منطقة " فالابا " على حين كان الفرنسيون قد ضموا الأراضي المجاورة إليهم ، الأمر الذي جعل مناطق النفوذ الإنجليزي محصورة ، فأسرعت إنجلترا وأعلنت حمايتها على الأجزاء التي وقع زعماء القبائل على معاهدات معها ، وعلى الأجزاء التي أخذتها نتيجة الغارات المتكررة ، وأطلق على المجموع اسم سيراليون[1] .

سارت إنجلترا في سيراليون بسياسة استعمارية قد لا تختلف كثيراً عن السياسات التي سار عليها الأوربيون جميعاً أثناء سيطرتهم على أراضي خارج حدود قارتهم بصورة عامة ، وعلى أرض إسلامية بصورة خاصة ، وأهم جوانب هذه السياسة : —

١) التبشير : حرص الاستعمار منذ أن وطئت قدمه أرض سيراليون على أن يعمل على بناء مراكز للتبشير بعقيدته ، لذا طلب من الكنائس أن تبعث

---

[1] تاريخ العالم الإسلامي، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

بإراسالياتها إلى تلك المناطق للعمل على إدخال السكان المحليين بالديانة النصرانية ، وذلك من أجل أن يعتمد عليهم في تسيير شئون البلاد ، وأن يكونوا دعامة له في السيطرة على تلك الجهات . وعملت الإرساليات التبشيرية على الوقوف في وجه الإسلام الذي يعد أتباعه قلة آنذاك ، فمنعتهم من الانتساب إلى مدارسها والدخول في مشافيها والإفادة من خيرات الأرض ، إذ حرصت على سلب أرضهم ، وأخذ أملاكهم في سبيل إفقارهم وجعلهم يلتجئون إليها نصارى مستسلمين .[1]

٢) **التفرقة** : اتخذ الإنجليز في سيراليون كما اتخذ المستعمرون في كل مكان سياسة التفرقة بين السكان ، وذلك من أجل إبقاء السيطرة لهم ، فقد عملوا على زيادة الخلاف القبلي بين أكبر المجموعات وهي (التمنى) و (الماندى) ، وشحن الطرفين بالحقد والبغضاء بعضهم ضد بعض ، كما قسموا البلاد إلى عدد كبير من التنظيمات وصلت إلى ١٤٤ زعامة ، وأبقوا نقاط خلاف بين هذه الزعامات يمكن أن يثيروها في أي وقت .

٣) **التعليم** : إلى جانب مدارس التبشير النصرانية افتتحت وزارة المعارف الإنجليزية بعض المدارس ، وكانت المناهج موجهة حسب التعاليم النصرانية وحسب مقتضيات المصالح الاستعمارية ، وهي لا تختلف كثيراً عن مدارس الإرساليات ومناهجها ، ولم تسمح بانتساب المسلمين إليها ضمن شروط وهي أن يغير الطالب اسمه ليصبح اسماً نصرانياً على الأقل ، أو ليقبل على عقيدة المستعمرين كلياً ، وذلك كي يبقى المسلمون في حالة من التأخر . وفي الوقت نفسه فقد أحجم أكثر المسلمين عن الدخول والالتحاق بمثل هذه المدارس خوفاً على عقيدتهم وأنفسهم من توجيه المستعمرين الذين يمس بمبادئهم ودينهم الأمر الذي أبقاهم في حالة من الجهل والتأخر، على حين سبقهم غيرهم ممن اقبل على التعليم والانتساب إلى مدارس المستعمرين .[2]

---

[1] محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في افريقيا، ١٥، سيراليون، ص ٤٩ - ٥٠.

[2] المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٢.

٤) **الصحـــة** : لم تهتم بريطانيا بالصحة عناية كبيرة ، وإنما أبقت الأمراض تنتاب السكان ، ثم بدأت ببناء بعض المستوصفات والمشافي ، واقتصرت على ذلك على العاصمة (فريتاون) وما حولها حيث يقيم المستعمرون ، أما المدن والقرى فبقيت على ما كانت عليه .

٥) **الدعايـــة** : كان الاستعمار يشيع بين السكان أن الإسلام دين العرب وقد جاءوا به من الشمال ، ولكن هذه الدعاية لم تجد لها صدى واسعاً ، إذ وجد السكان أن المسلمين الدعاة إنما هم من السود ، وقد جاءوا من غينيا ، ولهذا لم يقبلوا هذه الدعاية ، وفي الوقت نفسه فقد لاحظوا أن المستعمرين هم الذين يختلفون في الديانة عنهم، ويريدون أن يفرضوا هذه الدعاية على السكان ، ويستعمروا البلاد ، ويشعروا بالتفوق على أبناء أفريقيا عامة .

٦) **نشر الفســـاد** : شجع الاستعمار على نشر المفاسد ، وعمل المنكرات ومعاقرة الخمر ولعب الميسر ، والاختلاط بين الرجال والنساء ، وأشاع أن هذا من باب المدنية والحضارة ، والتقدمية .

وهكذا بقي المسلمون تحت رحمة الجهل والفقر والمرض وسوء التغذية والنزاعات القبلية وانتشار الفساد والخرافات بينهم[1] .

---

[1] محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في افريقيا، المرجع السابق، ص ٥٦ - ٥٧.